العربية المعاصرة والحسّ اللغويّ

الدكتور نعمة رحيم العزاويّ

نقصد بالحس اللغوي ملكة تتكون لدى المتكلمين بلغةٍ ما، تهديهم إلى خصائصها الذاتية، وطاقاتها التعبيرية، فيستغلون تلك الخصائص، ويستثمرون هذه الطاقات، ليجيء كلامهم مطابقاً لأغراضهم، ومعبراً عن مقاصدهم، من غير زيادة أو نقصان.

ومعنى ذلك أن المتكلم بلغةٍ ما، يحتاج إلى ضربين من المعرفة بلغته، الأول: معرفة عقلية، تتكون عنده من دراسة نظام اللغة، والاطلاع على قوانينها التي تصرّفها، وتتحكم بأبنية مفرداتها، وصياغة تراكيبها، والآخر: معرفة حسية أو ذوقية، تتربّى في نفسه من مراقبة الاستعمالات الفصيحة، ومعاودة النظر فيها، والموازنة المستمرة بينها وبين ما يجري على لسانه من استعمالات، لينقّي كلامُه مما قد يتسرّب اليه بين الحين والحين، من ألسنة المتسامحين المتساهلين، أو من اللغات الأخرى، عامية كانت أو أجنبية.

غير أن الذي يحصل في حياتنا اللغوية الراهنة، أن المتكلمين بالعربية الفصيحة يحرصون على مطابقة النظام اللغوي، والخضوع لقوانين اللغة العلمية فحسب، ولا يعنيهم بعد ذلك أن يساير كلامهم (حسّ) اللغة، أو يطابق (ذوقها) الذي وصل الينا عبر نصوصها الفصيحة، وتسلسل في نفوس الفصحاء، الذين ملكوا اللغة سليقة، وطُبعوا على استعمالها جيلاً بعد جيل.

إن قصارى جهد المتكلمين بالعربية الفصيحة في زماننا هذا، أن يرفعوا المرفوعات، وينصبوا المنصوبات، ويخفضوا المجرورات، وهم لا يحفلون بعد ذلك بأن يضعوا لفظاً

مكان لفظ، أو يزيدوا في الكلمة حرفاً لا تحتاج إليه، وفي الجملة كلمة يُغني عنها غيرها، أو يعوضها السياق.

لقد فقد أكثر المتكلمين بالعربية في هذا العصر الحس اللغوي، أو تلك الملكة الدقيقة، التي تجنبهم وضع اللفظ في غير موضعه، وتصون كلامهم من الحشو والفضول، وترتفع به عن الهذر والتطويل. ومعنى ذلك أن فقدان الحس اللغوي جرّ على العربية المعاصرة ظاهرتين خطيرتين، إحداهما: انعدام الايجاز، والأخرى: انعدام الدقة، أي التعبير عن المعنى بغير اللفظ الدال عليه، أو المخصص له. والذي يوازن بين كلام أهل هذا العصر، وكلام السلف من الفصحاء، يجد مصداق ما ذهبت إليه، والدليل القاطع عليه. ففي كلام السلف إيجاز ودقة، وفي كلام المعاصرين تطويل وإسهاب، واستعمال لفظ غيره أولى منه، وأكشف عن المعنى المراد.

فالإيجاز كان سمة كلام العرب، وطابعه العام، ولا فرق في ذلك بين شعرهم ونثرهم، فهم يتركون الحرف إذا دل عليه دليل، ويعافون الكلمة إذا أغنى عنها السياق، وكانوا يتبارون في ذلك، ويتفاضلون به، حتى أن بعضهم عرّف البلاغة بأنها الإيجاز، وقد بلغ من حبهم الايجاز، وطلبهم الشديد له، أنهم لم يكونوا يوجزون التركيب فحسب، ويعبرون عن المعنى بأقصر لفظ ممكن، بل كانوا يوجزون (المفردة) كذلك، فيبنونها بأقل قدر ممكن من الحروف، ومن هنا رأيناهم يقولون (حامل) و(مرضع) و(طالق) و(طامث) بدل (حاملة) و(مرضعة) و(طالقة) و(طامثة)، لأن هذه الأوصاف وضعت للمؤنث، وليس من داع لتأنيثها، وتطويلها بزيادة (تاء) في آخرها.

وأما إيجازهم التركيب، وبناؤه بأقل عدد ممكن من الكلمات فأمثلته كثيرة، ولا سيما في القرآن الكريم، الذي تجلت فيه ظاهرة الإيجاز، على نحو يبيح لنا – دون تعصب – أن نصف العربية بأنها لغة الإيجاز. وينبغي ألا نمر بالإيجاز مروراً عابراً، ونكتفي بوصفه ظاهرة بلاغية فحسب، بل علينا أن نستشف منه أمرين اثنين: الأول أن العربية لغة تعتمد على عقل المخاطب، أكثر مما تعتمد على الالفاظ، والآخر أن العرب عرفوا بحدة العقل، ونفاذ الإدراك، بحيث استطاعوا أن يفهموا المعنى ولا دليل عليه من اللفظ، ويستنبطوا الفكرة ولا مفصح عنها من كلام.

فإذا قال العربي: (من كذب كان شراً له) فهم السامع أنه يريد (من كذب كان الكذب شراً له)، إلا أنه اعتمد على عقل المخاطب، واستغنى بهذا العقل عن ذكر كلمة (الكذب). وإذا قالت الآية الكريمة: {والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما}(الفرقان: ٦٧) أدرك العربي القديم أن المراد (وكان الإنفاق بين ذلك قواما). ومعنى ذلك أن العربية تحرص أشد الحرص على أن يستحضر المخاطب بها عقله، ليفهمها ويدرك معانيها، ويعوض بحضور عقله غياب بعض الكلمات عن التركيب.

وأما الدقة وهي المزية الثانية التي تتسم بها العربية، فالأمثلة عليها كثيرة، حفل بها شعر العرب ونثرهم، وحققها القرآن الكريم على نحو فاق به البلغاء، وسما على كل ما لهم من براعة في هذا المضمار. ومن أوجه دقة اللفظ القرآني أنه عبّر عن بعض المعاني بكلمات مزيدة، للدلالة على ما في تلك المعاني من قوة، ومبالغة لا يظهرها اللفظ المجرد. فـ(اقتدر) أقوى معنى من (قدر) ولذا قال تعالى: {أخذ عزيز مقتدر}(القمر: ٤٢) لأن (مقتدر) هنا أوفق وأدق من (قادر) ما دام الموضع موضع تفخيم القدرة، وبيان شدة الأخذ.

وأما دقة اللفظ في كلام الفصحاء فشواهده كثيرة، حتى أن النقاد كانوا يعيبون هذا الشاعر أو ذاك لعدم تخيره اللفظ الدقيق فقد عيب أبو تمام بعدم الدقة حين قال:

ديمة سمحة القيادة سكوب   مستغيث بها الثرى المكروب

ذلك لأن (الثرى) لا يستغيث بالديمة، ولا يتلهف على مائها، إلا اذا كان جافاً يابساً، إذا كان كذلك فهو ليس (ثرى) وانما هو تراب.

فإذا جئنا إلى لغة أهل هذا العصر وجدناها تعدم أهم ميزتين هما: الإيجاز والدقة. وهذا يعني أن اكثرهم فقدوا الحس اللغوي، الذي يميز به المرء بين لفظ ولفظ، وتركيب وتركيب، وصاروا يقفون من تحصيل اللغة عند معرفة قوانينها العلمية، وأنظمتها النحوية والصرفية، وأصبحوا وجُلّ همهم أن يراعوا هذه القوانين، ويصدروا عنها، اذا كتبوا أو تحدثوا:

وإذا وازنّا بين كلام المعاصرين وكلام السلف، وجدنا البون شاسعاً، والشقة بعيدة، فبقدر ما كان كلام السلف موجزاً لانجد فيه حرفاً يمكن إسقاطه، ولا كلمة يمكن

الاستغناء عنها، أصبح كلام المعاصرين مطولاً، فيه الحرف الذي لا مسوّغ له، والمفردة التي لا غَناء بها، ولا جدوى منها، وبقدر ما كان كلام السلف دقيقاً، لا تجد فيه كلمة غيرها أولى منها، أصبح كلام المعاصرين ولاحظ له من الدقة، أو لا نصيب له من التحديد. وبقدر ما كان المتكلمون بالعربية في عصور ازدهارها يعتمدون على عقل السامع أو المخاطب، أصبح المتكلمون بالعربية المعاصرة يفترضون أن بالسامع أو المخاطب حاجة إلى البسط والإيضاح، لئلا يقتضيه الكلام إعمال الذهن، واستحضار العقل، لتصيّد المعاني، واستنباط الأفكار، والذي نقصده بكلام المعاصرين كلام المثقفين والأدباء والإعلاميين، الذين يخضعون في استعمالاتهم اللغوية لقوانين اللغة، وأنظمتها النحوية والصرفية، غير آبهين لما يوجبه (حس) اللغة و(ذوقها) العام في بناء المفردات، وصياغة التركيب.

وإذا كان المعاصرون لا يجارون (حسَّ) اللغة، أو (ذوقها) العام، فإن ذلك يكشف عن تفريطهم بهذا الحس، وتسهّلهم في تكوينه في نفوسهم بالإكثار من قراءة الكلام الفصيح، والتضلع منه فهماً وذوقاً وحفظاً، ولكي أقيم الدليل على صحة ما ذهبت إليه، من أن كلام المعاصرين يفتقر إلى (الإيجاز) و(الدقة)، سأضرب هنا طائفة من الأمثلة، اقتبسها من كتابات الموظفين في دواوين الدولة، أو مما تنشره الصحف، وتذيعه الإذاعات.

فمن أمثلة تطويل المفردة، وتكثير عدد حروفها، قول المعاصرين: (خطة طموحة) بزيادة (التاء) على وزن (فَعُول) وهو مما يستوي فيه المذكر والمؤنث، ولا موجب لتأنيثه. وقولهم: (خُطوبة) بدل (خِطْبة) و(نضوج) بدل (نضج) و(خصوبة) بدل (خِصْب). وقولهم: (تحدث المدير مع الموظف) فيزيدون الفعل (حدّث) بالتاء ويأتون بـ(مع) في غير موضعها، فيطيلون المفردة، كما يطيلون التركيب، وكان الوجه أن يقولوا: (حدّث المدير الموظف). وقولهم: (هاجم المرض فلاناً)، فيزيدون الألف على الفعل (هجم) ولو قالوا: (هجم المرض على فلان) لأدوا المعنى الذي يريدونه بمفردة أقصر وأصحّ، لأن (هاجم) تدل على المشاركة، وواضح ان الهجوم هنا حصل من طرف واحد، وهو المرض، لا من طرفين.

وكما يطيلون المفردة بزيادتها بحرف لا تحتاج إليه، كذلك يطيلون الجملة بزيادة حرف يكون لغواً في الكلام، مثل زيادتهم (الواو) على (أنْ) في قولهم: (سبق وأن) وقولهم: (كما وأن) وزيادتهم (الواو) أيضاً بعد (بل) في قولهم: (نجح فلان بل وكان متفوقاً) وزيادتهم إياها قبل (حتى) في قولهم: (وحتى فلان حضر الحفل).

وأما إطالتهم الجمل بكلمات لا غناء فيها فالأمثلة عليه كثيرة، منها قولهم (تمّ افتتاح المعرض) بدل أن (افتُتح المعرض) وقولهم: (وجرى في اللقاء بحث العلاقات) بدل أن يقولوا: (وبُحِثت العلاقات في اللقاء). ومعنى ذلك أن استعمال الفعل المبني للمجهول – الذي يهمله المعاصرون كثيراً في تعبيراتهم – يحقق لكلامهم صفة الإيجاز.

وإذا كان التطويل في العبارات المذكورة آنفاً ناجماً من عدم بناء الفعل للمجهول، فإن التطويل في مثل قولهم: (المذكرة التي كُتبت من قبل فلان) ناجم من بناء الفعل للمجهول، ولو قالوا: (المذكرة التي كتبها فلان) لأدى القول غرضهم، من غير حشو أو تطويل، ومن غير لجوء إلى تعبير (من قبل) غير الفصيح الذي تسلّل من الترجمات إلى لغتنا المعاصرة. وقولهم: (سنعاقبه إذا تكرر ذلك منه مستقبلاً) من أمثلة الجمل الطويلة، ولو أنهم استغنوا عن كلمة (مستقبلاً) لحفظوا على الجملة وجازتها، وخلصوها من التطويل، لأن (إذا) ظرف لما يستقبل من الزمان. ومن أمثلة الجمل الطويلة قولهم: (سوف لن أحضر الحفل) أو (سوف لا أحضر الحفل) ولو أنهم قالوا: (لن أحضر الحفل) لكان كلامهم صحيحاً وافياً بالمعنى، وموجزاً لا تطويل فيه، لأن (لن) حرف لنفي الزمن المستقبل.

وأما عدم الدقة في كلام المعاصرين فأمثلته كثيرة نجتزئ ببعضها خوف الإطالة. يقول الكُتّاب في الدواوين: (لم يُرْسَل الكتابُ حتى الآن) فيستعملون (لم) لنفي الماضي المتصل بالزمن الحاضر، والادارة المعبرة عن هذا النوع من النفي هي (لما) ولو انهم استعملوها لكان كلامهم أدق، ولاستغنوا عن تعبير (حتى الآن) الذي أطالوا به الجملة، ويقول المعاصرون: (زرتِ المريض) فيهجرون الكلمة الدقيقة المعبرة عن هذا المعنى (عُدْتُ).

ويقولون: (زارنا فلان ليلاً) والكلمة الدقيقة المعبرة هنا هي (طرقنا)، ولو قالوا: (طرقنا فلان) لكان كلامهم أدق وأوجز، ولاستغنوا عن كلمة (ليلاً) لأن الطروق الزيارة في الليل.

ويقولُ المعاصرون ولاسيما الإعلاميون: (ألقى فلاناً خطاباً) والكلمة الدقيقة هنا هي (خطبة) لأن الخطاب هو المكالمة، أو المواجهة بالكلام، فقولنا: (خاطب فلان فلاناً) أي كلّم أحدهما الآخر شفاهاً، والخطاب مصدر (خاطب).

ويقول المعاصرون: (للقضاء على هذه الظاهرة أو الحدّ منها)، يريدون بتعبير (الحد منها) تقليلها، وفاتهم أن (الحدّ) معناه (المنع) ومنه قيل للبواب: (الحداد) وللسجّان أيضاً، لأنه يمنع الخروج. يزاد على ذلك أن (الحدّ) مصدر لفعل متعد بنفسه، لذا يقال: (حدّ الظاهرة) أي منعها، ولا يقال: (حدّ منها).

ويقولون: (لا أفعل ذلك إطلاقاً) وكلمة (أبداً) هي الكلمة الدقيقة المعبرة عن المعنى هنا، لا كلمة (إطلاقاً) التي هي مصدر (أطلق).

ويقولون: (لا يفعل ذلك قط) و(ما فعل ذلك أبداً) فيضعون (قط) مكان (أبداً) والعكس صحيح، والوجه أن ينفوا الماضي بـ(قط) وينفوا المضارع بـ(أبداً).

نجتزئ بما تقدم من أمثلة على ما في العربية المعاصرة من ميل إلى الحشو والتطويل، وافتقار إلى الدقّة، ولعمري إن التفريط بالإيجاز والدقة يعني سلب العربية أهم خصائصها، ويعني كذلك إماتة ألفاظ ينبغي ألا تموت لدقتها، ولأن هجر بعضها يجرّ علينا الهذر والتطويل، ثم أن التفريط بالإيجاز يعني سلب العربية ما عرفه القدماء بـ(شجاعتها) واعتمادها على عقل المخَاطب بها أكثر من اعتمادها على الألفاظ، وهذا يعني أن العربية تربّي المتكلمين بها على حدة الذهن، ودقة الفهم ليفهموا اللمحة الدالة، والإشارة الخاطفة، وليعوضوا بنفاذ عقولهم اللفظ المحذوف، والكلمة الغائبة.